فعال لكل ما يريد ، ومن ثم يصرح الكتاب العزيز أن الإنسان قد خلقه الله لغرض منشود وهدف مقصود ألا وهو أن يعيش فى هذه الدنيا، بكل ما يقول أو يعمل ، منذ البداية إلى النهاية ، عبداً طائعا لله عزوجل فيقول ، وهو أصدق القائلين!

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذريت٥٦]

فإذا كان الله الذى خلق الإنسان هو المريد لكل شئ ، وإذا كانت إرادة الله من خلق الإنسان أن يعيش هو فى هذه الدنيا عبداطائعا لربه ، خاضعا لأوامره ونواهيه ، فأنى لهذا الإنسان أن يقوم بعمل، مهما كان نوعه و درجته أو أثره ومآله، لا ينفع عباد الله فى حياتهم العملية أو أن يأتى بعبث من الأقوال والأعمال ، وهو مسئول عنها، دون أن يعرف مسئولية الكلمة أو كلمة المسئولية ، وقد و بخ الكتاب العزيز وزجر القائلين بعبث القول والعمل حين قال:

﴿ أفحسبتم أنما خلقنكم عبثا و أنكم إلينا لا ترجعون﴾

[المؤمنون١١٥]

فالأديب المسلم ، إذن ، هو الذى لا يعبث بالكلمة ولا يأتى بالمعبوث من الكلام إذ هو يعرف مسئولية الكلمة ويؤمن بكلمة المسئولية فلا ينتج شيئا غير الأدب الهادف النافع المفيد ، ذلك الأدب الذى يقوم على التصور الإسلامى للخالق والإنسان والكون ، وهو تصور للحياة قد جاءت به الرسل والأنبياء من لدن آدم و نوح إلى سيدنا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعن ذلك يعلن الكتاب العزيز قائلا:

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم و موسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه !!﴾ [الشورى١٣]

و بعد ... فتلك هى رسالة الأديب المسلم وهى التى تدعو إليها رابطة الأدب الإسلامى العالمية من إنتاج الأدب الرفيع البناء الذى يهدف إلى صالح البشرية و منفعتها وسعادتها فى الدارين ، الدنيا والآخرة... والله من وراء القصد ، وبتوفيقه تتم الصالحات.

(أ. د. ظهور أحمد أظهر)

نابغة لغوي من أبناء شبه القارة الهندية
السيد محمد مرتضى الحسيني البلكرامي الزبيدي
(أحواله وآثاره العلمية)

إعداد و تقديم

الدكتور خالق داد ملك
الأستاذ المشارك ، بقسم اللغة العربية،
جامعة بنجاب بلاهور

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد محمد مرتضى الحسيني البلكرامي الزبيدي
(أحواله وآثاره العلمية)

من المعلوم ويشهد التاريخ على أن شبه القارة الهندية قد سعدت بنعمة الإسلام منذ القرن الهجري الأول، وخرجت نخباًطيبة من أكابر العلماء والصلحاء الذين كان لهم أكبر الأثر في الحفاظ علي مبادئ الإسلام والدعوة الإسلامية الغراء، والذين كرسوا حياتهم لصالح الأمة المسلمة وسعادتها، وقد تركوا لنا ذخيرة حية من كتب التراث العربي الأصيل في كل فن ولون، وماوصل إلينا من هذا التراث ، جزء مما لاعلم لنا به؛ فإن كثيرا من أعمالهم العلمية والأدبية ومؤلفاتهم القيمة النادرة قد طارت بها العنقاء وذهبت بدون رجعة بين الأرضية والإهمال.

وكذلك من المعلوم و يرشدنا التاريخ إلي أن الصلة اللسانية بين شبه القارة الهندية الباكستانية والعرب كانت قائمة قبل الإسلام بمئآت السنين، ومنذ قديم الزمان بدأت الهجرة العلمية من شبه القارة الهندية الباكستانية إلي البلاد العربية والإسلامية، فنقرأ في صفحات التاريخ أسماء

العلماء والمحدثين الكثيرين الذين خرجوا من بلادهم ، ثم سكنوا في البلاد الإسلامية الأخري، وقاموا بخدمة جليلة للعلم وأهله، ونالوا صيتاً حسناً واسعاً، وشهرة مدوية في تلك الديار والبلاد، ومنهم علي سبيل المثال:

الشيخ أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي المتوفى ببغداد في سنة ١٧٠هـ، (١) والشيخ رضي الدين الحسن بن محمد الصغاني اللاهوري المتوفى ببغداد في سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م،(٢) والشيخ على بن حسام الدين، المتقي البرهانبوري المتوفى ٩٧٥هـ، (٣) والشيخ رحمة الله بن عبد الله بن ابراهيم السند ي المتوفى بمكة المكرمة في سنة٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م، (٤) والشيخ أبو الحسن محمد بن عبد الهادي الحنفي السندي المتوفى في سنة ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م والمدفون بالبقيع،(٥) والشيخ محمد حياة السندي المتوفي بالمدينة المنورة والمدفون ببقيعها في سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٤٨م، والشيخ محمد عابد بن أحمد السندي المتوفى في سنة ١٤٥٧هـ والمدفون بالبقيع ، (٧) والكثيرون الآخرون.

ومن هؤلاء الأعلام والمحدثين الكبار، السيد محمد مرتضى البلكرامي الزبيدي, الذي ولد ونشأ في الهند، ثم خرج من مسقط رأسه لطلب العلم، ووصل إلي بلاد العرب، وأقام بزبيد، دارة علم باليمن معروفة، فتوطنها واستفاد من علمائها، واقتبس من أشعة عظمائها، واختلط بأهلها، حتى عدّ من أهلها، و لم يعد إلى دياره الأصلية طوال حياته.

اسمه ونسبه:

هو محب الدين، أبو الفيض، السيد محمد مرتضى بن محمد بن قادري بن ضياء الله، الشهير بمرتضى الحسيني الواسطي الحنفي البلكرامي

الزبيدي نزيل مصر (٨). ولد ونشأ في مدينة (بلكرام)، ومنها استمد لقبه البلكرامي(٩)، كما كان يلقب بالواسطي نسبة إلى سادة بلكرام الذين ينحدرون من نسل السيد أبي الفرح الواسطي الذي يقال عنه إنه هوالذي هاجر إلي بلاد الهند بعد غزوة هولاكو لبغداد(١٠) وأما نسبة الزبيدي فتعود هذه إلى "زبيد" بفتح الزاء) مدينة باليمن، والتي أقام بها مدة من الزمان، وأخذ العلوم النقلية والعقلية عن جماعة أعلامها، فقيل له الزبيدي، واشتهر بذلك(١١). ومما يثير العجب والطرافة أنه لم يشتهر بنسبة المصري رغم أنه أقام في مصر مدة أكثر وأطول منها في زبيد، واستكمل فيها العلوم النقلية والعقلية، وقام فيها بجميع أعماله، وتزوج فيها، وتوفي و دفن بها.

نسبه وأسرته:

وأما نسبه فيرتفع إلي سيدنا علي، كرم الله وجهه، وقد نقله السيد غلام علي آزاد البلكرامي(١١١٦-١٢٠٠هـ) في كتابه" مآثر الكرام في تاريخ بلكرام" بذكر ثماني وعشرين واسطة(١٢) وكذلك قد ذكره السيد صديق حسن القنوجي في نهاية ترجمةالسيد الزبيدي قائلاً:

"ولي منه رحمه الله، قرابة قريبة من جهة الأخوات، يصل نسبنا إلى سيد الساجدين، الإمام زين العابدين، علي بن حسين بن علي السبط، رضي الله عنهم، وينتهي نسبه إلىزيد الشهيد بن الإمام زين العابدين السبط، فهو شبل ذاك الأسد، ونخبة أهل هذا البيت المجد".(١٣)

وقد تحدث السيد غلام علي آزاد البلكرامي عن جد الزبيدي، السيد قادري، وتضلعه في اللغة العربية ونبوغه فيها، وأغلب الظن أن

حفيده الزبيدي كان قد ورث حب اللغة العربية كلغة وأدب من جده الكريم، وكانت أسرة الزبيدي متحلية بالفضل والأدب، وشهيرة بالتحمس للدين والورع ، وكان جده السيد قادري من أكابر العلماء في تلك الديار، وقضي معظم سني حياته في الرحلات العلمية، فيقول السيد غلام علي آزاد البلكرامي:

" إن السيد قادري شرّق وغرّب، لافي بلاد الهند فحسب، بل في بلاد العرب والعجم العديدة للحصول على علم الطب والتبحرفيه، وأخيراً نزل بالزاوية القادرية بمدينة حما في الشام، وانخرط في السلسلة القادرية على يد السيد يسين الحموي، واكتسب من علومه، ثم رحل إلى بغداد، وأقام فيها مدة، وبعد التضلع في العلوم الظاهرة والباطنة وصل إلى مدينة(دهلي) واشتغل بنشر العلوم والمعارف حتى حبب إليه الخلاء في أواخر عمره، زاهداً في الدنيا ومنقطعاً عن الخلق ومتبتلاً إلى الله عزوجل، ويكفينا لتقدير مرتبته العلمية ومكانته البارزة بين علماء ذلك العصر ماقاله أحد من معاصريه عند وفاته:

رحل القادري سيدنا صاحب الكشف والكرامات

ألهم بحق عام رحلته إن للمتقى لحسنات"(١٤)

وكان السيد غلام علي آزاد البلكرامي قد زار السيد قادري وتشرف بلقائه، فقد ذكرفي ترجمته أن السيد قادري ماكان شيخا كاملاً ومرشداً عظيماً في علوم التصوف والسلوك فحسب وإنما كان بحراً في علوم الفقه والحديث والتفسير، وكان يحفظ القرآن الكريم عن ظهر الغيب، وماهراً بعلم التجويد والقراءة، وكان تلميذا رشيداً لمفسر الهند

الملاجيون،(١٥) وكذلك فقد تتلمذ على الشيخ سلطان بن ناصر بن أحمد القادري البغدادي، واستجازه فأجازه في مروياته ومسموعاته.(١٦)

ولادته ونشأته:

وإن كان السيد محمد مرتضى قد اشتهر بنسبة الزبيدي في جميع كتب التراجم والتذاكر إلا أنه كان ولد في قصبة (بلكرام) التي تقع على خمسة فراسخ من مدينة قنوج وراء نهر كنك بالهند، (١٧) وكانت هذه القصبة تنقسم في تلك الآونة حسب عمرانها وسكانها إلي محلتين، إحداهما تسمى(سيد واره) والأخرى(سيدان بوره) ويتضح مما ذكره السيد غلام علي البلكرامي أن أسرة السيد محمد مرتضى كانت تقطن في محلة (سيد واره) ثم تزوج أحد أجداده، ويسمى عبد الغفار، في محلة(سيدان بوره) فبسبب الصلات الصهرية تحول إليها وقطن بها حيث ولد السيد محمد مرتضى في نفس المحلة في سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م في بيت علم وفضل (١٨)

وقد ورد في ترجمة السيد الزبيدي في آخر الجزء العاشر من تاج العروس (طبعة مصر): "و نشأ ببلاده ، واشتغل بطلب العلم على علماء الهند، منهم الشيخ المحدث محمد فاخر إلاله آبادي المتخلص بالزائر، ومنهم الشيخ المحدث الدهلوي،(٢٠) صاحب كتاب حجة الله البالغة"(٢١) وفي مقدمة طبعة دارالفكر من تاج العروس مايأتي: "واقتصر على هذه العبارة "ونشأببلاده" دون أي توضيح أوذكر لمكان ولادته ونشأته".(٢٢) وقد علق عليها صاحب الطبعة الكويتية من تاج العروس قائلاً:

" نحن لانجد نصّاً واضحاً في كلامه يدل على أنه من الهند، وإن صح أنه ولدهناك فإن بقاءه فيها كان لفترة وجيزة"(٢٣)

ولكننا نرى بل نتأكد أنه اقتصر على العبارة"ونشأببلاده" لأنه من المعلوم الثابت وتتفق جميع المصادر والتذاكر أنه ولد بقصبة (بلكرام) بالهند ونشأفيها، ولذا قال مشيراً إلى الهند أنه "نشأببلاده". وأما قول صاحب مقدمة الطبعة الكويتية:

"نحن لانجدنصّاً ...فنقول: وهل نجدنصّا واضحا في كلامه وكتبه يدل على أنه ليس من الهند، ومترجموه جميعهم يذكرون أنه ولدونشأ في الهند، واشتغل بالعلم على أساتذة بلدته زمانا، واستكمل العلوم المبدئية في مدينة (سنديلة) و (خير آباد) و(إله آباد) و (دهلي) ، ثم سافر إلي الحجاز للدراسات العليا.(٢٤)

وقد صرح بمكان ولادته صاحب معجم المؤلفين قائلاً: " مولده في بلجرام في الشمال الغربي من الهند. (٢٥) وكذلك قد ورد في دائرة المعارف الإسلامية الأردية مايأتي :"وولد في بلدة بلكرام التي تقع في محافظة قنوج من الشمال الغربي للهند." (٢٦) وقد جاء في كتاب "اللغة العربية في باكستان، دراسة وتاريخاً" : محب الدين، أبو الفيض، السيد محمد مرتضى، الإمام، الأديب، نزيل مصرو دفينها، ولد بقصبة بلكرام سنة ١١٤٥هـ، ونشأ وتربى في بلاده، وتلقى العلم على خيرة علمائها ، ومن أساتذته: الشيخ ولي الله الدهلوي ، والشيخ خير الدين بن زاهد الكوثري.(٢٧) ويقول السيد صديق حسن القنوجي في ترجمة الزبيدي:-

" إن السيد أصله من السادة الواسطية من قصبة بلكرام، وهي على خمس فراسخ من بلدتنا قنوج ماوراء نهر كنك... وقد أقام رحمه الله بزبيد حتى قيل له الزبيدي واشتهر بذلك، واختفى على كثير من الناس كونه من الهند ومن بلكرامها. وقد ذكر في برنامجه ثلاث مئة مشائخ له الذين أخذ عنهم العلم ، وسمى منهم من علماء الهند ومشائخها: الشيخ المحدث العلامة محمد فاخر بن محمد يحي الإله آبادي المتخلص بالزائر، ومسند الوقت الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي ، صاحب كتاب حجة الله البالغة ، قال: و حضرتُ بمنزله في دهلي ... وإنما أطلت الكلام في ترجمته هذه لجهل أكثر أهل العلم عن حاله و مآله، وقد أفنى، رحمه الله، عمره في اشتغال العلم والتدريس بمصر".(٢٨)

وكذلك نقرأ السيد عبدالحي الحسني في كتابه "نزهة الخواطر" وهو يلقي المزيد من الأضواء على أحوال الزبيدي الابتدائية ذاكراً:

" وُلد بمحروسة (بلكرام) سنة خمس و أربعين و مئة و ألف، واشتغل بالعلم على أساتذة بلدته زماناً ، ثم خرج منها، فجاء إلى (سنديلة) و (خير آباد) وقرأ على أساتذتهما، ثم سافر إلى (دهلي) و أخذ عن الشيخ ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي، ثم ذهب إلى (سورت) و أخذ عن الشيخ خير